سيذهب من دون خرائط وسيعود مع.. ومتى ستدرك الأسرة الدولية أن الطريق مسدود؟

زيارة اولمرت الرسمية الاولى لواشنطن تعتبر هامة لانها ستطرح خطة الانطواء كبديل جاهزة لخريطة الطريق

■ عندما ينزل ايهود اولمرت في يوم الاحد في مطار اندريوس العسكري بجوار واشنطن، ويتم استقباله بصورة حافلة، سيدرك للمرة الاولى أنه قد أصبح رئيسا للوزراء.

الايام التي ستتبع ذلك لن تلبث الا أن تعزز شعوره ذاك. زيارة البيت الابيض تحولت منذ زمن الى مراسم تدشين لرؤساء الوزراء في اسرائيل، وكأن الزعيم الشرق اوسطي الجديد سيتمايل طوال فترة ولايته من دون وضع يد الدولة الأعظم على رأسه ومباركتها له.

المسألة ليست رمزية فقط. من الصعب على كل قائد في العالم أن يتدبر أموره من دون دعم الرئيس الامريكي، ناهيك اذا كان هذا رئيسا لوزراء اسرائيل. شارون أدرك ذلك في سنواته الأخيرة، فغير اتجاهه الذي تميز بمناهضة الولايات المتحدة سابقا بما في ذلك عدة صدامات علنية. وفي أواخر فترته الرئاسية ارتقى بفنون العلاقة مع واشنطن وأوصلها الى أرقام قياسية لم يكن لها مثيل في السابق.

الامريكيون يعززون هذا التوجه. هم يفعلون ذلك من خلال الأمور الصغيرة التي يُجيدون القيام بها مثل عقد اللقاء معه في الجناح السكني وليس في المكتب.

عشية يوم السبت سيتوجه دوف فايسغلاس وشالوم ترجمان الى واشنطن للتحضير للزيارة التي تعتبر هامة من الناحية الجوهرية، وليس من الجانب الاجتماعي الذي يغلفها. طابع الزيارة الجوهري هو السبب وراء ارسال فايسغلاس وترجمان، المحسوبين على خط شارون. قبل اسبوعين التقى فايسغلاس في لندن مع أليوت أبرامز، نائب مستشار الأمن القومي، وديفيد وولس نائب كونداليزا رايس والمسؤول عن الشرق الاوسط. جزء من اللقاء كُرس لتنسيق المواقف بين اسرائيل وامريكا في مواجهة حماس، والجزء الباقي خُصص للقضايا والتفاهمات التي ستُطرح خلال الزيارة الرسمية.

التحضير للزيارة ينضج كل المسائل تقريبا على المستوى اللوجستي (من يشارك وكيف سيجلسون)، والمسائل المطروحة. اولمرت طلب الالتقاء ببوش وديك تشيني ورايس. وطلب السماح له بزيارة مجلسي النواب والشيوخ.

فايسغلاس وترجمان سيطرحان خلال زيارتهما القريبة المسائل التالية: المشكلة الايرانية، الجبهة الشمالية، حماس والجبهة السياسية الموحدة الآخذة في الانفراط ضدها. من المعتقد ايضا أن قرار الرباعية بصرف الاموال للسلطة الفلسطينية سيطرح خلال اللقاء. وسيتم التطرق ايضا الى الخط الرفيع الفاصل بين الضغط على حماس لقبول شروط الأسرة الدولية الثلاثة وبين الحاجة للقيام بمبادرات انسانية تجاه الفلسطينيين.

إلا أن القضية الأكثر اثارة التي ستطرح على جدول الاعمال ستكون خطة الانطواء.

أحد أهداف طاقم التحضير هو طرح الخطة بتركيز وصياغة صحيحة من دون التسبب في أزمات. خطة اولمرت ليست سرا. الامريكيون ايضا يعرفونها، ولكنهم لن يستقبلوا كل أجزائها بنفس الدرجة من القبول: ربما يقبلون بالانسحاب، أما الانطواء خلف الجدار الفاصل فهو حكاية مختلفة تماما، وكذلك الأمر بالنسبة لاعتبار الجدار حدودا لدولة اسرائيل.

هذه القضية ستطرح الآن على المستوى العمومي جدا فقط كبديل عن الوضع الذي لا يحتمل التوصل الى اتفاق فيه. خريطة الطريق لم تمت بعد بالنسبة للعالم، ومن غير المعتقد أن يقبل بوش بالاعلان عن عدم وجود شريك في هذه النقطة.

الادارة الامريكية تتوقع بأن يكون الاعلان عن «عدم وجود شريك» صارخا ومطلقا. وفي اطار المداولات ستطرح مكانة أبو مازن، وسيكرر الامريكيون أملهم بأن تجد اسرائيل طريقة للتحدث معه، فتردد اسرائيل من جانبها بأنها مستعدة لذلك، إلا أن المسألة لا تكمن في اللقاء ذاته وانما في مضمونه.

كل هذه الاسئلة والاجابات تهدف الى الوصول الى النقطة التي يصبح واضحا للجميع فيها أن كل سبل التفاوض قد استنفدت، وان كل ما يمكن فعله قد حدث، وعليه ليس هناك شريك للتفاوض. المحادثة في واشنطن ستكون كنوع من بلورة خطة الانطواء كفكرة بديلة: خريطة الطريق هي الخطة الرئيسة، والانطواء هي خطة بديلة لها. السؤال هو متى ستحل الخطة البديلة محل الخطة الرئيسة. بكلمات اخرى: متى ستدرك الأسرة الدولية أن الطريق مسدود.

اولمرت لا يتوجه الى واشنطن مع الخرائط. فهي ليست موجودة لديه بعد. هدف الطاقم الذي تشكل في عهد شارون برئاسة اهارون ابراموفيتش ليس التوصل الى الحلول، وانما تحديد المشاكل.

ومع ذلك تبقى خطة فك الارتباط على رأس جدول اعمال حكومة اولمرت، والورقة الرئيسة التي تمكنه من الاحتفاظ بالحكم. أولا، لأنه تعهد بذلك، ولأنه حولها الى استفتاء شعبي. ولكن هذه امكانيته الوحيدة للاحتفاظ بالحكم على المستوى العملي ايضا: خطة الانطواء ستضع على جدول الاعمال السياسي مشكلة وطنية وجودية. هذه الخطة ستؤجل التركيز على القضايا الاعتيادية التي يتوجب على الحكومة ان تتابعها. هل يذكر احدا منا ما هو وضع سلة الادوية عشية فك الارتباط عن غزة؟ وهل يذكر أحد ما عدد الاطفال الذين كانوا حينئذ تحت خط الفقر؟

هذه نافذة الفرص الداخلية بالنسبة لاولمرت. نافذته الخارجية هي بوش. لدينا عامان من حكم الرئيس الامريكي الاخذ في الوهن والذي يفقد دعم شعبه. الموافقة الامريكية هي بالنسبة لنا مسألة جوهرية ومن دونها لا يبقى من الخطة اي شيء. هذا هو السبب من وراء اعتبار زيارة اولمرت الاولى لواشنطن هامة الى هذا الحد. هذه الزيارة تشكيل بداية عملية سيصبح مستقبله السياسي من دونها في خطر.

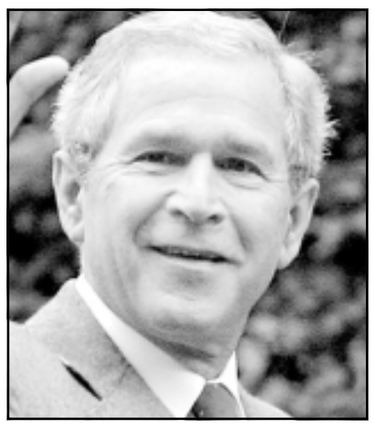

جورج بوش

ايهود اولمرت

ما هكذا يبنى السور

الاسبوع الاول من عمل الحكومة يكشف عن اساسها الواهن والمتردي. ائتلاف بين المتناقضات وفجوة غير قابلة للجسر بين الحزب الاكبر كديما وبين الشركاء الثلاثة الاخرين: العمل والمتقاعدون وشاس.

يتبين ان اية خطوط اساسية لا تستطيع أن تجسر بين الخط الاقتصادي الليبرالي الذي ينادي به حزب كديما وبين وعود الاحزاب الاجتماعية الثلاثة الشريكة لناخبيها. بصورة سريعة جدا ومبكرة جدا بدأت اللبنات تسقط من السور حديث البناء. اول لبنة سقطت هي لبنة الالتزامات الاجتماعية العميقة. اشخاص مثل يورام مرتسيانو الذي يتوجب عليه العودة الى اللد ليلا أو شيلي يحيموفيتش التي وضعت كل ثقلها على معارضة ميزانية نتنياهو وحتى ابيشاي بيرفرمان الذي يجد صعوبة في قبول التغير في سلم الاولويات. في هذا الاسبوع قام بطرح ذلك في لجنة المالية. هذا سيكون خداعا للجمهور حسب قول بيرفرمان وأنا سأكون جزءا من هذا الخداع ان ايدت الميزانية في القراءة الثانية والثالثة.

كل هذا لا يمنع التوصل الى أغلبية في عمليات التصويت. ولكن من اللحظة التي ستبدأ فيها الهزة الارضية ستكون هذه اللبنات اول الحجارة التي تسقط. تلك التي تشكل رمزا للالتزام الاجتماعي الفكري والتي ستجد تعارضا كبيرا جدا بين خطها وبين خط وزير المالية العامل باسم الحكومة. هؤلاء اشخاص لا يخشون من المس بسيرتهم المهنية ان خرجوا ضد اولمرت وعارضوه.

وهناك المتقاعدون الذين قام رافي ايتان برزمهم مثل السيجار الكوبي وسلمهم ضمن رزمة واحدة لحزب كديما. هؤلاء أشخاص ساذجون بسيطون في اغلبيتهم، اعتقدوا انهم إن اصبحوا جزءاً من كديما فان ذلك سيعزز قدرتهم على المساومة. عما قليل سيكتشفون ان اسعار الخبز ليست وحدها هي التي تتصاعد. هناك على الطريق اقتراحات لرفع اسعار منتوجات الحليب. فما الذي سيقولونه لناخبيهم في هذه الحالة؟

اللبنات قد بدأت تتزحزح والتصدعات أخذت في الظهور. ومن اللحظة التي يظهر فيها الصدع لا تعود هناك اهمية لما يقف وراءه. وعندما يبدأ الانهيار ستتوسع التصدعات التي عادة ما تظهر بصورة اكثر تأخرا. المهم ان لا ندخل في بلبلة: هناك من الان من يقوم بتشخيص هذه اللبنات واكتشافها. وهناك ايضا من يقوم باحصائها وتصنيفها في مجموعات منتظرا اللحظة السانحة التي يتدخل فيها. هو سيكون هناك حتى يقوم باعادة اللحمة للتصدعات مشجعا المحتارين والمترددين ومحفزا خائبي الامال، وسيكون هناك حتى يوجه الدفعة الاخيرة التي تسقط السور.

هناك من الان من لا يجلس في هدوء اسألوا عضو الكنيست يسرائيل كاتس عن ذلك؟

سيما كدمون
مراسلة الصحيفة للشؤون الحزبية
(يديعوت احرونوت) 2006/5/12

في اول مقابلة صحافية تُجرى معه بعد تسريحه من الجيش

رئيس الادارة المدنية في الضفة الغربية: كان بامكاننا أن نُسلم المفاتيح لابو مازن.. ولكننا اخترنا القاءها في الشارع

■ في مطلع الاسبوع الماضي سلّم العميد ايلان باز عتاده بعد 28 سنة في الخدمة العسكرية، سبع منها في الضفة الغربية. في يوم السبت صباحا خرج من منزله للالتقاء مع فلسطينيين في فندق «الامباسدور» في الشيخ جراح. منذ أن تسرح قبل تسعة اشهر وهو يشارك في اللقاءات التي ينظمها المركز الاسرائيلي ـ الفلسطيني للدراسات في محاولة شبه يائسة للحفاظ على صلة بين الجانبين. في اللقاءات السابقة كان باز يصغي بهدوء الى شكاوى النشطاء الفلسطينيين في اغلبية الوقت، واكتفى بتوجيه ملاحظة حول ما قاله الرفاق الاسرائيليون في معرض تأييدهم لخطة فك الارتباط/ الانطواء. في هذه المرة قام باز، المُسرح من الجيش، والذي كان رئيسا للادارة المدنية في الضفة الغربية وقائدا للواء جنين ورام الله في السابق، برفع قدمه عن الكوابح.

«خطة الانطواء لن تخرج الى حيز التنفيذ بعد عشرين سنة ايضا»، أطلق نائب قائد الكوماندو البحري السابق كلماته، وأردف «الجمع الخطير بين الازمة الانسانية والفوضى الداخلية والمذابح والقسام ـ كلها ستضطر اسرائيل الى العودة الى الضفة وربما الى غزة ايضا، وهذا يعني الحرب واستدعاء الاحتياط والخسائر في الأرواح والثمن الاقتصادي الفادح».

هو ذكر بأن اسرائيل هي التي كانت المسؤول العام عن المناطق قبل اوسلو. «اذا انهارت السلطة، فلن نتمكن من الوقوف صامتين، بينما يقف ثلاثة ملايين انسان على شفا المجاعة ومن حولهم حالة من الفوضى والعنف».

بعد يومين، وفي اول مقابلة صحافية تُجرى معه بعد تسريحه من الجيش، قال أن اعادة الحكم العسكري حسب دراسات الادارة المدنية ستكلف 12 مليار شيكل سنويا. وهو لا ينجح في فهم مصلحة اسرائيل في انهيار السلطة. أما فكرة اعادة فتح للحكم، فهي مضحكة بالنسبة له. «التجربة تشير الى أن الازمات الداخلية والفاقة لا تدفع السكان المعذبين الى التفاوض مع العدو الذي يعتبر سببا في ضائقتهم، بل انه يدفعهم الى التطرف ضدنا»، يقول باز محللا. «اذا لم يتوفر المال للتعليم الذي حققنا فيه انجازات هامة في منع المواد التحريضية، فسينتقل التلاميذ الى جهاز التعليم الحمساوي الذي يستمر في الحصول على التبرعات والدعم الاسلامي». اذا كان الخبراء قد ادعوا أن أبو مازن وفتح غير قادرين على مواجهة حماس، عندما كانوا في الحكم، فهل سيصبح ذلك ممكنا الآن عندما أصبحت حماس في الحكم وفتح في حالة تفكك؟

حتى اذا كان الأمر يرتبط بتسوية مع دول الرفض، فمن الواجب التفاوض مع حماس في القضايا المتعلقة بالحياة اليومية، ومواصلة الهدنة. ولكن الوضع الراهن مع حماس ايضا لن يُحسن من فرص نجاح خطة الانطواء أحادية الجانب. «اذا لم نُسلم المنطقة الى طرف ذي مصلحة مشتركة معنا في التوصل الى تسوية قائمة على حل الدولتين ضمن حدود حزيران (يونيو)، فان الوضع سيخرج من نطاق السيطرة. من الذي يضمن لنا أن لا يتم اطلاق صواريخ القسام على كفار سابا؟ لن يقوم أي سور بنقل الفلسطينيين في الضفة أو في غزة الى الجانب الآخر من الكرة الارضية. وحتى جدار شاهق بارتفاع 80 مترا لن يستطيع منع الآخر ايضا. اهانة الشعب المجاور لن تتمخض عن أي شيء جيد.

«صحيح ان ابو مازن ليس زعيما كاريزماتيا، وهو لا يتحمس للمواجهات الداخلية. رغبنا ان يقوم بمكافحة حماس، إلا أنه ادرك حدود قوته. هو أدرك أنه لن يكسب شيئا من المجابهة المباشرة ضدهم. وفضل التوصل الى الهدوء بطرق اخرى. الهدنة لم تكن مقبولة علينا، ولكن حماس لا تشارك في العمليات منذ أكثر من سنة».

■ أولم تدفع فتح ثمن الفساد؟

■ أنا لا أتجاهل أن الفساد ايضا قد أسهم في سقوط فتح. ولكن العامل المركزي كان عدم قدرتها على التوصل الى تسوية مع اسرائيل لتضع حدا للاحتلال. العملية السياسية هي الميزة الوحيدة التي تملكها فتح بالمقارنة مع الاحزاب المنافسة. كان بامكان فتح أن تبذل جهدا أكبر لفرض النظام، ولكنني أعلم أن قوات السلطة لا تستطيع أن تفعل أي خطوة تقريبا من دون مساعدتنا وموافقتنا. هذا صحيح ايضا بالنسبة لمناطق (i) الخاضعة لسيطرتهم الكاملة. نحن لا نسمح لهم بأداء دورهم، وخلال فترة طويلة لم نسمح للشرطة الفلسطينية المسلحة بحماية المحاكم والسجون والبنوك أو حتى الدخول الى القرى عندما كانت تحدث المشاجرات بين الحمائل. اذا كنا نطالبهم بالسيطرة على ما يحدث على الارض، فمن واجبنا أن نسأل الجمهور الفلسطيني بانتخابهما؟ اذا بنيناه كشريك لنا فسيعزز ذلك صورته أمام شعبه الذي يرغب في اغلبيته في انهاء الصراع.

باز يقول أنه بعد أن انتخب أبو مازن لرئاسة الوزراء قال له أحد المسؤولين في ديوانه بأن أحد النجاحات الكبرى التي سجلها أبو مازن في رصيده كانت فتح حاجز سرده في رام الله. «أنت لا تتصور كم عزز ذلك صورة أبو مازن في نظر جمهوره. وبالمناسبة، أنا أقمت حاجز قلنديا في آذار (مارس) 2001، ولكن ذلك كان خطوة سريعة بهدف منع عملية إثر انذار محدد. إلا أن حاجز قلندية لم يُرفع منذ ذلك الحين، بل تحول الى نقطة حدودية دائمة.

«كان علينا أن نفهم منذ زمن أن من الواجب تكريس الموارد هناك من اجل اقامة معبر انساني. لست اقول أنه لا توجد حاجة للحواجز أو الاغلاقات احيانا، ولكن ذلك يجب أن يكون متوازنا وأن يأخذ في الحسبان الجوانب الثقافية والسيكولوجية للطرف الآخر ايضا. اهانة الشعب المجاور لن تتمخض عن أي شيء جيد.

«صحيح ان ابو مازن ليس زعيما كاريزماتيا، وهو لا يتحمس للمواجهات الداخلية. رغبنا ان يقوم بمكافحة حماس، إلا أنه ادرك حدود قوته. هو أدرك أنه لن يكسب شيئا من المجابهة المباشرة ضدهم. وفضل التوصل الى الهدوء بطرق اخرى. الهدنة لم تكن مقبولة علينا، ولكن حماس لا تشارك في العمليات منذ أكثر من سنة».

■ عن أية تسوية تتحدث؟ ومع من يمكن عقدها ذلك لانه ليس هناك شريك في الطرف الآخر كما نعلم.

■ لقد آن الأوان للتمعن في فرضية أن أبو مازن هو زعيم ضعيف، ولذلك لا يعتبر شريكا. نحن اسهمنا في بلورة هذه الصورة. أنا استطيع أن اقتبس ما قاله رئيس هيئة الاركان السابق الذي أبدى ندمه على عدم قيامنا بمبادرات ايجابية لتعزيز مكانة أبو مازن. كان بامكاننا أن نفعل ذلك لو أعطيناه مفاتيح غزة، بدلا من القائها في الشارع، ولو كنا قد سلمناه على الأقل السيطرة المدنية على المناطق التي أخليناها في شمالي الضفة. بذلك كنا سنحول دون نشوء وضع اعتُبر فيه فك الارتباط لدى الفلسطينيين نجاحا لحماس، ولربما كان بامكان ذلك أن يؤثر على الانتخابات في المناطق. هناك شخصان في رقصة التانغو هذه. طالما بقينا نقول أن أبو مازن وفتح ليسا شركاء، فلماذا سيقوم انفسنا اذا كنا نسمح لهم بتنفيذ ذلك.

■ هل تعتقد أنه مازال من الممكن التوصل الى تسوية دائمة على المدى المنظور؟

■ هناك شريك فلسطيني في الاتفاق الذي يمكنه أن يكون مقبولا على اغلبية الجمهور الاسرائيلي ـ من دون حق العودة، ولكن ايضا من دون خطة الكتل الاستيطانية بما في ذلك منطقة «اي 1». خلال فترة طويلة قمنا «بعرفتة» (نسبة الى عرفات) الصراع، وها هو عرفات قد مات، إلا أن المشاكل بقيت. سنضطر في نهاية المطاف الى التوصل الى حل، وهو سيكون مشابها لمشروع كلينتون تقريبا ولاتفاق جنيف. السؤال هو كم سيُسفك من الدم حتى ذلك الحين. واذا اتضح لنا بعد المفاوضات الجدية مع أبو مازن أنه لا يستطيع توفير البضاعة المطلوبة، فسيكون من الممكن عندئذ أن ندخل من وراء حدود قابلة للحماية. ولكننا ندين لانفسنا بالقيام بمحاولة جدية لوضع حد للصراع قبل القيام بأية خطوة أحادية الجانب.

قُمنا بخلق غول

عندما شاهد باز المستوطنين المتمترسين في بيت شابيرا في الخليل عبر التلفاز، تذكر جولة المستشار القضائي للحكومة ميني مزوز في الخليل. هناك في الخليل ظواهر مرعبة من العنف تجاه الفلسطينيين، وكذلك تجاه قوات الأمن. تجمع سكاني كامل يأخذ القانون بيديه. «أنا اعتقد أنه لا مفر من اخراج المستوطنين من هناك، ولكن ما العمل غدا صباحا؟ مستوطنو حفات معون لا يسمحون لاطفال أم طوبا بالوصول الى المدرسة منذ عام ونصف. ويهاجمونهم حتى عندما يكون الجيش برفقتهم. كم يبلغ عدد المستوطنين في حفات معون؟ أفلا يمكن وضع حد لهم؟».

هو يقول أن الجنود والشرطة يعرفون أن استخدامهم للعنف سيوصلهم الى أقبية التحقيق. عندما قام مستوطن بقتل سائق سيارة عمومية فلسطيني، أُطلق سراحه من المعتقل بعد أن قرر القاضي أنه لا يشكل خطرا على الجمهور، فما كان منه إلا أن فر من البلاد. في نهاية حملة مرهقة بين الأروقة القانونية نجح باز بالوصول الى تحقيق جنائي ضد ضابط عسكري كبير بتهمة أنه كان مشاركا في قضية سلب اراضي في الضفة. التحقيق تشعب، وفي الاسابيع القريبة ستقوم النيابة العامة بتوجيه لوائح اتهام ضد تجار الاراضي و16 محاميا متهمين بتزييف الوثائق والرشوة والسرقة والمخالفات الضريبية. باز على قناعة أنه لو كانت الشرطة قد تعمقت في القضية، لتم اكتشاف عشرات القضايا التي لا تقل خطورة عن سلب الاراضي والتزييف لدواعي «ايديولوجية». «اغلبية المستوطنين هم اشخاص محافظون على القانون، وحتى اذا كان بعضهم يقطن في اماكن غير قانونية، فقد قيل لهم أنهم يقومون بواجب وعمل صهيوني»، يقول باز. «المصطلحات التي ابتدعناها ـ المشروع الاستيطاني وانقاذ الارض وأبناؤنا البررة، كلها عبارة عن مصطلحات هادفة الى إضفاء رونق على العملية. روح القائد احيانا هي التي تؤثر على عملية التنفيذ على الارض في الوقت الذي يقوم فيه القائد ببث روحية غير واضحة. على سبيل المثال، الادارة المدنية تقوم باصدار أوامر بوقف العمل ضد كل بناء غير قانوني، ومن ثم تصدر أمرا بالهدم. ولكن الهدم لا ينفذ فعليا إلا بمصادقة من وزير الدفاع. عندما صادق موفاز على هدم المنازل في عمونه قمنا بعملية الهدم. أما باقي أوامر الهدم فتنتظر في ديوان الوزير. بنحاس فالرشتاين (رئيس مجلس ماتيه بنيامين الاقليمي) مُحق بدرجة كبيرة عندما يدعي أن المشروع الاستيطاني قد أُقيم بتخويل وتفويض رسميين.

«قمنا بخلق غول وفجأة عندما كشف تقرير ساسون عن وجهه للعالم كله، اكتشفنا أن مواجهته ليست بهذه البساطة. ولكنه تقرير طلبه رئيس الوزراء من مدعية عامة بارزة وحصل على موافقة الحكومة، ومع ذلك مر أكثر من عام وما زال موضوعا كالحجر الذي لا يتزحزح من موقعه. وفي غضون ذلك بقيت عشرات المستوطنات رابضة على اراض خاصة استُلبت من الفلسطينيين بغطاء تواصل الحكومة تطويره. فما الذي يتوجب على المستوطنين أن يفهموه من ذلك؟».

أجرى المقابلة: عكيفا الدار
كاتب ومحلل
(هآرتس) 2006/5/12

التقت زوجها الاول مرتين فقط وكان كلاهما وراء القضبان .. وتزوجت ثانية من سجين محرر انتظرها الى ان خرجت من السجن لتعود اليه بعد فترة قصيرة من الزواج

عطاف عليان قضت سنين طويلة بالسجون وبعد وقف نشاطها النضالي والاكتفاء بالثقافة تقبع مجددا بالزنزانة مع رضيعتها دون تهمة ولا محاكمة

■ التقينا لاول مرة في شتاء 1998 في بيت لحم. سُرحت عطاف عليان آنذاك من اعتقالها الاداري، بعد عدة اشهر من تسريحها من عشر سنين سجن بتهمة اعدادها سيارة مفخخة ومهاجمة احدى السجانات في السجن.

كانت آنذاك بطلة محلية: لقد اشعلت الايام الاربعون لاضرابها عن الطعام بالسجن النار في المناطق آنذاك، احتجاجا على اعتقالها بغير محاكمة.

تروي «جان دارك» الفلسطينية، كما لقبت آنذاك، وهي تضع نقابا على وجهها، قصة حياتها، حيث كانت شيوعية في حداثتها ونشيطة في الجهاد الاسلامي في بلوغها، ضُرب اخوها حتى لفظ أنفاسه على ايدي جنود اسرائيليين في سنة 1976 وأُطلقت النيران على عمها ومات بين ذراعي ابيها في قريتهم الضائعة خلده في 1948.

تحدثت آنذاك بعبرية ضعيفة ركيكة، بصوتها الرقيق من وراء النقاب، عن زوجها، السجين اليافاوي حافظ قندس، الذي حكم عليه بمحاولة قتل عربي من يافا باع اليهود أرضا وقفية.

التقى الاثنان مرتين في حياتهما: مرة في مراسم زواجهما التي اجريت بين القضبان، ومرة اخرى عندما استصرخ قندس من سجنه في بئر السبع ليحاول التأثير في حبيبته لتكف عن اضرابها عن الطعام.

وفي أثناء ذلك كان أحدهما يصرخ الى الاخر من وراء القضبان، حينما كانا جارين في السجن. وقد أبقى لها معطفه الجلدي تذكارا. بعد ذلك التقيا في عدد من الفرص، مرة في روضة الاطفال الفخمة التي اقامتها في ساحة بيتها في بيت لحم، روضة الجهاد، ومرة اخرى في معرض اعمال السجناء الذي نظمته في مدينتها. وقد وعدتني مرة وهي تضحك ضحكة مدوية بأن تنزع النقاب عن وجهها اذا ما أخذتها لتزور تل ابيب مرة.

لبست سروال جينز وجزمة تحت الجلباب البنفسجي، المطرز، يوم عرسها للرجل الذي حكم عليه بـ27 سنة في السجن.

مرت الاعوام. جلسنا هذا الاسبوع في رام الله في مكتب زوجها الجديد، وليد الهدلي. وهو سجين مسرح ايضا بعد 12 سنة في السجن الاسرائيلي. أجرى التعارف بينهما سجين آخر برسائل ارسلها من السجن لكليهما. تزوج وليد عطاف قبل سنتين ونصف، وقبل نحو سنة ونصف، كانت عطاف اصبحت في الـ41 حين ولدت ابنتهما عائشة. الان عطاف في السجن مرة اخرى، معتقلة اعتقالا اداريا بغير محاكمة، مدد ثانية. في هذه المرة، بعد اضراب آخر عن الطعام استمر 16 يوما، أُتي اليها بابنتها الطفلة ايضا.

للهدلي ثلاثة اولاد في الاردن من زواجه السابق، مُنع من لقائهم، وزوجته وابنته في السجن الاسرائيلي، لا يسمح له ايضا ان يلقاهما. بقيت له فقط صورة في حاسوبه، عائشة ابنة السنة والثمانية اشهر، تنظر الى ابيها، نظرات وهمية. انها رواية فلسطينية من الحياة.

يقول الهدلي انه وزوجته تعهدا قبيل زواجهما الا يعملا بعد في اية منظمة، لا في الجهاد ولا في الاسلامي، لئلا يعرضا حريتهما للخطر. هو يعمل في الصباح في مصنع المياه في رام الله، وبعد الظهر في مكاتب «بيت المقدس»، وهي رابطة أدبية تتصل بجامعة بيرزيت. تقع في أعالي مبنى مكاتب عصري وسط رام الله، في غرفة صبغت جدرانها بلون أخضر بين مكاتب شركة حواسيب وشركة سماسرة تصدر الرابطة عشرات الكتب، للاولاد والبالغين. وتترجم الان كتاب عديت زرتال وعكيفا الدار «اسياد البلاد».

الجدران مملوءة كتبا ومجلات اصدروها، وكلها مصممة تصميما رائعا.

الهدلي أديب نشر سبعة كتب، عن حياة السجن في الاساس. مشروعه الادبي الحالي هو «قصص قصيرة» يكتبها باسم ابنته عائشة. احداها: «كيف تكون الحال والام معتقلة»، والثانية: «نظرة الى الام من خلال الجدار الزجاجي في زيارة للسجن»، والاخيرة عن الام التي يمددون اعتقالها. وكل هذا بنظر المتأملة الصغيرة. «اريد أن أسأل: اي نوع هذا من البيوت، من غير أم؟». يكتب باسم ابنته. يقول ان هذه ليست قصصا سياسية.

رام الله صاخبة مزدحمة كما لم تبدُ منذ زمن. اللافتات الضخمة لعارضات الازياء، والازدحامات المرورية، وأزمات الوقوف والمطاعم التي يجب حجز طاولة فيها سلفا. يبنون على قبر برعفات في ساحة المقاطعة، متحفا، والدخول مباح للجميع من غير تفتيش. توجد هياكل بناء فوق القبر الذي ليس هو سوى بلاط من الاسمنت حتى يستكمل بناء المتحف. يجب ان يُسأل العمال فوق هياكل البناء اين القبر لتحديد موضع مدفن الاب المؤسس.

أمضى الهدلي السنين 1990 ـ 2002 في السجن الاسرائيلي بمخالفات أمنية في الانتفاضة الاولى. وهو اليوم في الـ46، من مواليد مخيم الجلزون، درس الرياضيات في رام الله. وسع ثقافته في السجن ودرس الادب العربي، وهناك ايضا كتب كُتبا. ابنه كان في سن الـ14 حين مات مريضا بينما كان هو في السجن ولم يُسمح له بالخروج لحضور جنازته. ابناؤه الثلاثة الاخرون يعيشون مع امهم في الاردن ولا يسمح لهم بدخول المناطق. وهو لا يسمح له بالخروج الى الاردن، الا اذا التزم بعدم العودة. بقي له الهاتف والانترنت فقط. لم يرَ ابناؤه الكبار منذ ست سنين، حين زاروه لمرة واحد ووحيدة في سجنه في عسقلان، كان في فتح مرة وبعد ذلك اقترب من الحركة الاسلامية، لكنه كما يقول لا ينتمي اليوم لاية منظمة: في الصباح ماء وبعد الظهيرة أدب. «يمكن ان تعمل من أجل شعبك ايضا بغير مخاطرة أنا وعطاف وعدنا بعضنا بعضا الا نعود لاي نشاط يعيدنا الى السجن. لماذا؟ لانني أكره السجن كرها شديدا.»

اصبح صيت عطاف عظيما في الضفة ووصل الى وليد. عندما يُسأل عن ظروف تعارفه وعطاف، تظهر ابتسامة خجولة على شفتيه. فهو انسان لين منطو، يقول «لم يكن ذلك في الحقيقة لقاء أعمى»: فقد رأته عطاف في التلفاز، ورآها في التلفاز بنقابها. ألح السجين نضال زلوم، وهو صديق مشترك عليهما ان يتزوجا. فقد اعتقد انهما يناسبان بعضهما. ارسل الوسيط من السجن اليه واليها، أما ما سوى ذلك فقد أصبح تاريخا. اتصل وليد بالهاتف بعطاف عدة مرات، 3 او 4 محادثات قصيرة واصبح عاشقا. بعد ذلك اعتقلت عطاف مرة اخرى لسنة واضطر الحب الى الانتظار. وعندما سرحت قبل نحو سنتين ونصف السنة اتصل يهنئها بتسريحها. بعد ذلك تجرأ وسافر الى بيتها، ليطلب يدها كانت عطاف قد انفصلت عن حافظ قندس قبل ذلك بسنتين، ويزعم وليد انهما كانا مخطوبين فقط ولم يكونا متزوجين.

عائلتها وافقت على الوساطة

بعد يومين تزوجا وانتقلا ليسكنا في بيته في رام الله. افتتحت عطاف مقهى انترنت في وسط المدينة، للنساء فقط. ما تزال تضع النقاب على وجهها. ووليد يعارض ذلك.

في رأيه أن المرأة المسلمة يكفيها ان تغطي شعر رأسها وعنقها، لكنه يحترم قرار زوجته.

في سنة 1998 قالت لي عطاف: «لقد احببت النقاب جدا في سن الـ18، لكنني لم استطع وضعه على وجهي. كان ارتداء الملابس الدينية آنذاك في بيت لحم شيئا غريبا. كانوا يعيدين عن الدين. كان الناس يسألون «لماذا تلبسين هكذا؟»، ولم ارد القتال عن اشياء قبل حينها. لم استطع وضع النقاب لكنه كان في قلبي، وعندما شعرت انه حان الوقت لوضعه، وضعته. كان ذلك في السجن، في حوالي 1989 ـ 1990، ومنذ ذلك الحين وأنا اضعه».

في التاسع والعشرين من ايلول (سبتمبر) 2005 ولدت عائشة. يقول أبوها ان حياته تنقسم الى ما كان قبل التاسع والعشرين من ايلول (سبتمبر) وما تلا ذلك، فكل واحد وايلوله. كانت عطاف تأخذ عائشة في كل يوم الى عملها في المقهى، وكانت من آن لاخر تشد نقابها وتزيله للحظة. هو أديب وهي صاحبة مقهى انترنت، ولدت عائشة وابتسمت الحياة للحظة قصيرة.

في ليل الحادي والعشرين من كانون اول (ديسمبر) 2005، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، احاط جنود بالبيت. اعتقد وليد أن الباب سيحطمه قرع الجنود. كان مقتنعا انهم أتوا لاخذه. يقول ان كل من قضى سنين طويلة في السجن يصيبه الكابوس من هذه اللحظة. خاف هو وعطاف ايضا. دخل عشرات الجنود والجنديات البيت. عندما رأى الجنديات أدرك انهم جاءوا لاخذها لا لاخذه. «كنا نتفكه دائما انهم اذا ما اتوا لاعتقالي، فسنقول للجنود انني غير ذي صلة بشيء وان يأخذوها. ولكن عندما حدث هذا حقا، دعوت الله ان يعتقلوني مئة مرة شرط ألا يعتقلوها».

استيقظت عائشة من نومها، واحتضنتها امها للمرة الاخيرة وانفجرت باكية. ألحت عطاف على أخذها معها، وقالت ان القانون يمكنها من ذلك، لكن الجنديات والجنود رفضوا. وهكذا فصلت الطفلة عن امها.

في اليوم التالي جاءت الجارات واقترحن على وليد اخذ عائشة للعناية بها. لكن وليد ألح انه سيربي ابنتهما وحده. في الشهرين اللذين تليا ذلك كانت عائشة ملاصقة لابيها، في الماء وفي الادب. لكن عطاف بدأت اضرابا عن الطعام مطالبة أن يجيئوها بابنتها. بعد 16 يوما، وافقت سلطات سجن نافيه كرتسيه وقدمت محامية عطاف لتأخذ عائشة الى السجن. يقول وليد انه كان يفضل لو بقيت عائشة معه، «لكن لم استطع أن اقول لها لا. أأقول لها لا بعد اضراب عن الطعام لـ16 يوما؟».

عطاف تبقى مع عائشة أكثر الوقت في زنزانتها في السجن. انه وقت نوعي. سجنت في الزنزانة المجاورة ام فلسطينية اخرى وطفلها، في الاسبوع الماضي ولدت طفلة اخرى لسجينة فلسطينية ولدت في المستشفى وهي مكبلة بالقيود. حاول وليد ارسال اشرطة مسجلة لابنته، لكن سلطات السجن منعت ذلك. المحامية فقط هي التي يجوز لها زيارة عطاف. حكم عليها بالسجن بنصف سنة في اعتقال اداري، تم تقصيره في المحكمة لاربعة شهور، مددت نصف سنة اخرى، قصرت هي ايضا لاربعة شهور. وكل ذلك بغير محاكمة، وبغير لائحة اتهام، ومن غير أن يعلم أحد ما هي التهم الموجهة اليها.

■ لماذا اعتقلوها؟

■ الهدلي: من اليقين أنهم يملكون تقريرا استخباريا يعتمد على متعاون يحصل على المال وينم للسلطات عن الناس. أنا على ثقة من أنها لم تخف عني شيئا، وانها لم تكن نشيطة في اي نشاط محظور، لكن يسهل اتهام عطاف بسبب ماضيها.

تبتسم عائشة ايضا من خزانة الكتب في مكتبه. قبل عدة اسابيع، عندما أتوا بعطاف الى موقع عوفر، لنقاش تمهيد اعتقالها الاداري، على مبعدة 3كم من المكان الذي جلسنا فيه، جن جنوني: «على مبعدة 3كم من هنا، ولا استطيع أن ارى لا ابنتي ولا زوجتي». لا يوجد ما نقوله عن المكالمات الهاتفية بالطبع. «لا استطيع ان افهم كيف تعيش ابنتي الان في السجن. كيف تحلم من غير روضة، وكيف تنتبه من نومها على صوت صرخات «العد، العد» وتجد نفسها في الزنزانة. لا استطيع أن افهم كيف ستواجه هذا» يفترض ان يخلى سبيل عطاف وعائشة بعد ثلاثة اشهر واسبوع، وليد يعد كل يوم، اذا لم يمددوا اعتقالهما مرة اخرى.